۱۶۵۶۲

مجله	الازهر
تاریخ نشر	ربیع ۱۳۹۶
شماره	۴ـ ل ۴۸
شماره مسلسل	
محل نشر	مصر
زبان	عربی
نویسنده	علی عبدالعظیم
تعداد صفحات	۵۴۱ - ۵۴۳
موضوع سرفصلها	الشرک الخفی
کیفیت	
ملاحظات	

الشرك الخفى

للأستاذ على عبد العظيم

« وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون »

٢ ـ عبادة الذات

ان حب المرء لذاته أمر فطرى ، بل هو ضرورة حتمية لأنه يحفزه للمحافظة على حياته وعلى صحته وعلى منزلته فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وهو ـ مع هذا ـ يدفعه للتسامى والامتياز سواء بالثقافة الواسعة ، أو البطولة الرائعة ، أو الأخلاق السامية ، ويتجلى هذا الحب فى كل ما يصدر عن الانسان من أفعال ، وان كانت هذه الأفعال متباينة فان الباعث عليها متحد ، وقد أدرك المتنبى بلماحيته الفكرية هذا المعنى فى قوله :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه
حريصا عليها مستهاما بها صبا
فحب الجبان النفس أورده النفى
وحب الشجاع النفس أورده الحربا

ولكن حب الذات اذا طغى وانحرف فانه يتطور من الحب الى الاعجاب ، ثم من الاعجاب الى التقديس ، ومن التقديس الى العبادة ، وحينئذ تصبح الذات صنما من الأصنام التى يعبدها أصحابها من المنحرفين ، وهذا مرض شائع فى كثير من الناس ، ويسميه علماء النفس « مرض النرجسية » Narcissism أو عشق الذات ، ويرجعونه الى اسطورة اغريقية قديمة خلاصتها أن فتى اغريقيا اشتهر بجماله الفتان وقع فى حب نفسه وتدله بها فكان يقضى النهار كله ناظرا الى صورة وجهه فى صفحة الماء ، وحاولت احدى الحوريات جذبه اليها ، ولكن عشقه لذاته صرفه عنها فلم يلتفت اليها وبالغت فى التودد اليه فبالغ فى

الانصراف عنها فمسخته الى زهرة نرجس .

وعشق الذات يملأ النفس اعجابا وغرورا فيتخيل صاحبها أنه فوق البشر أجمعين ، فاذا سمع ثناء على غيره ضاق بهذا الثناء وتبرم به ، وصب غضبه على المثنى وعلى المثنى عليه ، ونال الاخير بألوان الذم والتحقير ، وخلع عيوبه عليه بما يسميه علماء النفس بعملية الاسقاط Pvoiection وهى أن يسقط المرء عيوبه على غيره ليدفع التهمة عن نفسه ، فالبخيل يتهم غيره بالبخل ، والجبان يلمز غيره بالجبن ، والكذاب يعيب سواه بالكذب ، ويقسم على أنه صادق أمين ، مثل الذين قال الله فيهم « ويحلفون بالله انهم لمنكم ، وما هم منكم » ، وممن قال سبحانه فيهم « ويحلفون على الكذب وهم يعلمون » وهؤلاء الكذابون يسقطون جريمة الكذب على أكرم الصادقين صلى الله عليه وسلم – وهم يعلمون ؟ كما قال تعالى « قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون ، فانهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » .

والمرضى بعشق الذات يتلمسون التبرير لجميع تصرفاتهم ؟ فهم – فى زعمهم – معصومون من الأخطاء منزهون عن النقائص ، وكل أقوالهم وأعمالهم صادرة عن حكمة سامية وتفكير عميق ؟ هذه التبريرات يسميها القرآن الكريم بالمعاذير ، ويقول الله فيها « بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » ويسميها علماء النفس بعملية «التبرير» Rationlistion ويفسرونها بأن المجرم حين يرتكب جريمة يلتمس لها الدوافع والحوافز المشروعة ، فالمرتشى يزعم أن الرشوة هدية ، والقاتل يبرر جريمته بأنها دفاع عن النفس ، والبخيل يسمى نفسه مقتصدا ، والمبذر يسمى نفسه كريما ، والجبان يدعى أنه حذر حكيم ، والمتهور يدعى أنه شجاع جرىء ، وقد نبهنا القرآن الكريم الى عملية التبرير فقال فى البخلاء : واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » وقال سبحانه فى الجبناء المتخاذلين «الذين يتربصون بكم ، فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ، وان للكافرين

نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين » .

وقال تعالى فى تبرير المنافقين لتخلفهم عن مشاركة المؤمنين فى الجهاد « قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ؟ هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون » .

ولايزال الانحراف النفسى يسيطر عليهم حتى يصدقوا ما يقترفونه من أكاذيب ، وقديما ورد فى الأمثال : لايزال الكذاب يكذب حتى يعد نفسه صادقا والله تبارك وتعالى يقول : « انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » ويقول سبحانه : « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » ويستبد بهم الغرور فيرون الحق واضحا والأدلة قاطعة ولكنهم يركبون رءوسهم ويصبرون على الاثم وهم يعلمون ، قال تعالى : « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » وقال عز من قائل :

« ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » وقال جل وعلا : « ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله » واذا باغتهم القرآن باعجازه الباهر قالوا : « لو نشاء لقلنا مثل هذا ، ان هذا الا أساطير الأولين » ، ويطمس الغرور أبصارهم وبصائرهم فيرون أنفسهم آلهة أو أنصاف آلهة ، وجميع الناس غيرهم حمقى أو أشباه الأنعام « واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون» وتمتد سخريتهم الى الرسل والأنبياء فمنهم كان ينظر الى الرسول صلى الله عليه وسلم فى سخرية واستهزاء قائلا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » – وفيهم يقول الله تعالى : « واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا»؟ ولكن الله سبحانه يطمئن رسوله قائلا : « انا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون » .

وهذه الكبرياء الطبيعية فى نفوس هؤلاء المجرمين « ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، واذا مروا بهم يتغامزون » وقديما تطاول اليهود على ذى العزة والجلال فقالوا : «ان الله فقير ونحن أغنياء» كما قالوا : « يد الله مغلولة » ؛ ويستبد الصلف والكبرياء بهؤلاء المنحرفين فيزعمون أنهم يملكون مقاليد الدنيا والآخرة فيهتفون بالناس أن يتبعوهم فى مسارب الضلال «وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم » ويرد الله سبحانه عليهم بقوله : « وماهم بحاملين من خطاياهم من شىء ، انهم لكاذبون ، وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون » .

وينتهى بهم المطاف الى عشق الذات ثم الى عبادتها من دون الله فلايجرى على ألسنتهم الا قولهم أنا أو نحن فاذا أنعم الله على بعضهم فى الدنيا بالجاه والسلطان قال : « ما علمت لكم من اله غيرى » واذا منحه المال لم يشكر الله بل زعم أنه أحرزه بعبقريته ومواهبه وقال مذهوا مختالا : « انما أوتيته على علم عندى » واذا وهب الله بعضهم بالقوة استبد بهم الصلف والغرور « فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون » وهم بكبريائهم واستعلائهم يكملون عمل ابليس اللعين ويتعاونون مع أعوانه وذريته ممن قال الله فيهم « شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا »وهم جميعا بهذا مطرودون من رحمة الله .

ونحن نعلم أن ابليس كان يؤمن بالله ويؤمن باليوم الآخر « قال رب فأنظرنى الى يوم يبعثون » ويؤمن بعزة الله وجلاله قائلا : فبعزتك لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين » ولكنه طرد من رحمة الله حين استبدت به الكبرياء وملأه الغرور اذ أنف من السجود لآدم قائلا فى زهو واستعلاء « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » ولما زجره الله سبحانه لم يعتذر ولم يبادر بالتوبة والانابة وانما قال فى كبرياء « لم أكن لأسجد لبشر خلقته

من صلصال من حمأ مسنون » ولهذا حرم الله دخول الجنة على الجبارين المستكبرين قال تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » وقال سبحانه : « ولا تمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » واذا امتلأ قلب الانسان بالغرور طبع الله على قلبه وحرمه من هدايته « انه لا يحب المستكبرين » ؛ « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » وقد ورد فى الحديث القدسى عن الله تبارك وتعالى : « العز ازارى والكبرياء ردائى فمن ينازعنى فى واحد منها فقد عذبته» وقال صلى الله عليه وسلم: « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » رواه مسلم ، وروى الشيخان عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لا ينظر الله يوم القيامة الى من جر ازاره بطرا» فانه سبحانه « لا يحب من كان مختالا فخورا » ولقد آتى الله لقمان الحكمة ونحن لا نكاد نعرف شيئا عن حياته ولا عن حكمته الا وثيقة تاريخية هامة حفظها لنا القرآن الكريم فى سورة لقمان ، هى وصية لقمان لابنه ، وقد جاء فيها قوله : « ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا ، ان الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الاصوات لصوت الحمير » ومن صرفته كبرياؤه عن مراعاة حقوق الله وحقوق العبادة صرفه الله عن رحمته وعن هدايته « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها،وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين» وهم بكبريائهم وجبروتهم لا يستحقون أن تنالهم رحمة الله « ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ، وكذلك نجزى المجرمين ، لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين » ؛ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»فقد انصرفوا عن الله فانصرف الله عنهم « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم » وقد « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » .

ونحن نعلم أن الملائكة تتنزل على المؤمنين كما قال تعالى « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » ونعلم فى الوقت نفسه أن الشياطين تتنزل على هؤلاء المتجبرين « ألم ترأنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا » قال تعالى : « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم » .

وقد أمر الله رسوله أن يتواضع مع المؤمنين قال تعالى : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » وكان صلوات الله وسلامه يصف نفسه بالعبودية لله قبل أن يصفها بحمل الرسالة فهو عبد الله ورسوله ، وقد أمر الله المؤمنين بالتواضع وعدم التفاخر والاستعلاء ، قال تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم » روى مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ان الله تعالى أوحى الى : أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد » وروى مسلم أيضا عنه صلوات الله وسلامه عليه « ما نقصت صدقة من مال ، ومازاد الله عبدا بعفو الا عزا ، وما تواضع أحد لله الا رفعه الله » وروى البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ما بعث الله نبيا الا رعى الغنم » ، قال أصحابه : وأنت ؟ قال : « نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة » . قال البخارى « ان كانت الأمة (أى الجارية) من اماء المدينة لتأخذ بيد النبى صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت » وقال : « سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها : ما كان النبى صلى الله عليه وسلم يصنع فى بيته ؟ قالت : يكون فى مهنة أهله (أى خدمتهم) فاذا حضرت الصلاة خرج الى الصلاة » . وقال أنس بن مالك « خدمت النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنوات ، فما قال لى لشىء فعلته: لم فعلته ؟ ولا لشىء تركته : لم تركته؟ وكانت خدمته لى أكثر من خدمتى له » . وقد أدب الله رسوله فأحسن تأديبه ، وهذبه فأحسن تهذيبه وعاتبه لأنه انصرف يوما الى زعماء قريش يعظهم ويذكرهم لعلهم يستجيبون للاسلام وأرجأ الحديث مع عمرو بن قيس ابن أم مكتوم الأعمى فأنزل الله قوله:

« عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يتذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ، فكان اذا جاء الى الرسول صلى الله عليه وسلم بعدها يبسط له رداءه ويقول: « أهلا بمن عاتبنى فيه ربى » .

ولقد أنبأنا الله عن المتجبرين وعقابهم الأليم فى الدنيا والآخرة كما حدثنا عن المتواضعين وثوابهم الجزيل، فان قارون حينما اغتر بماله وافتخر به فى زهو وكبرياء قائلا : « انما أوتيته على علم عندى» ولم يقل بفضل الله ، أهلكه الله « فخسفنا به وبداره الأرض » وعاد لما عتوا وطغوا أهلكهم الله قال تعالى : « فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » وفرعون حينما طغا وتجبر هو وجنوده « واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم الينا لا يرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » .

أما المتقون الصادقون الذين يعرفون نعم الله عليهم فلا تطغيهم وانما تدفعهم الى الشكر فان الله يزيدهم من نعمه ويبسط عليهم رخاءه فى الدنيا والآخرة قال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد » وقد أنبأنا الله أن أساس الحكمة عند لقمان تتلخص فى شكر الله «ولقد آتينا لقمان الحكمة : أن أشكر لله » ولما من الله على سليمان بالملك وتسخير الجن والريح وغير ذلك من النعم التى لم يهبها أحدا غيره لم تطغه هذه النعم بل دعا ربه قائلا فى خشوع : « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » ولم يقل ورثت الملك عن أبى ، ولا توالت على النعم بفضل عبادتى ، وانما قال : « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان ربى غنى كريم » ويوسف عليه السلام — وقد آتاه الله الملك — يتضرع الى ربه قائلا : « رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » .

وقد أنبأنا الله سبحانه أن من الناس من يغمره الله بفضله فيطغى ويتجبر « ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » ويقول كما قال صاحب الجنتين هذا لى وما أظن الساعة قائمة أو يقول كما قال قارون « انما أوتيته على علم عندى » ــ « واذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد » .

فمن أخذته العزة بالاثم وعبد نفسه من دون الله «فبئس مثوى المتكبرين» « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى » ونعم أجر العاملين » .

والجبار المتكبر مطرود من رحمة الله ، وهو مع ذلك محفوف بكراهية الناس ، فان كان حاكما جبارا مزقوه بألسنتهم سرا ثم عملوا على تقويض سلطانه ، وان لم يكن حاكما بحثوا عن عيوبه جاهدين وتجسموا هذه العيوب وجعلوه سخرية فى العالمين ، وكثيرا مايكون كبره وجبروته ستارا يحاول أن يستر به هذه العيوب فلا يلبث الستار أن يتمزق ولا يبرح الخلفاء حتى يظهر ، وعلى المتكبر المتجبر أن يعلم أن للناس عيونا تبحث وألسنة تمزق .

ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وان خالها تخفى على الناس تعلم

وقد تحدث العرب من قديم عن الصلف والغرور ، فمن حكمهم قول عمر بن الخطاب .

« ما وجد أحد فى نفسه كبرا الا من مهانة يجدها فى نفسه ، وهذا هو ما كشفه علماء النفس حديثا عن مركب النقص ومحاولة ستره بعملية التعويض، ويضرب المؤرخون العرب أمثلة لبعض المتكبرين فقد ذكروا أن معاوية خرج فى آخر العهد النبوى لبشيع وائل بن حجر فى يوم قائظ ، فقال لوائل أردفنى على راحلتك ، فقال له لست من أرداف الملوك ، قال فأعطنى خفيك ، قال : أكره أن يسمع أقيال اليمن أنك لبست نعلى ، ولكن امش فى ظل ناقتى وحسبك بهذا شرفا ، ويذكرون أن أبا ثوابه قال لغلامه : اسقنى ، فقال الغلام : نعم ، فقال له : انما يقول (نعم) من يقدر أن يقول (لا) وضربه ضربا مبرحا ، وتحدث مرة الى أجيرعنده ، ثم تمضمض استقذارا لمخاطبته ؟ وبعضهم خرج به الكبر الى الكفر ، ذكروا أن امرأة سألت سعيد بن زرارة عن الطريق قائلة دلنى عليه يا عبد الله ، فقال : أمثلى يكون من عبيد الله ؟وتحدثوا أن رجلا قال لعبيد الله بن زياد بن ظبيان : كثر الله فينا من أمثالك ، فقال : لقد كلفتم الله شططا!!!ومن المتجبرين من يبلغ به التجبر الى السفه والحماقة مثل ابن السلماني فيفخر بهذا قائلا :

أتيه على جن البلاد وانسها
ولو لم أجد خلقاً لتهت على نفسى
أتيه ، فلا أدرى من التيه من أنا ؟
سوى ما يقول الناس فى وفى مثلى
فان صدقوا أنى من الانس مثلهم
فما فى عيب غير أنى من الانس

وكلما أسرف المرء فى عشق نفسه وعبادة ذاته ازداد بعدا عن الله ، وبعدا عن الناس واسراعا الى نار جهنم وبئس المصير ، ونختم مقالنا بما رواه الشيخان عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ متكبر » ، والعتل : هو الغليظ الجافى ، والجواظ : الضخم المختال فى مشيته .

ومن قبيل عبادة الذات عبادة الأهواء والشهوات وهى موضوع حديثنا التالى ان شاء الله ؟

على عبد العظيم